جامعة المصطفى العالمية
Al-Mustafa International University
مجمع القرآن والحديث

الدراسات القرآنية المعاصرة
السنة ١، العدد ١، الخريف (ربيع)، ١٤٤٤
تاريخ التسلم: ٢٧ ربيع الاول ١٤٤٤؛ تاريخ القبول: ١١ جمادى الاول ١٤٤٤

دراسة في أسس البناء الثقافي القرآني

حمزة إمام موسى[١]

الخلاصة

إنّ البناء الفكري والثقافي هو الأمر الأساس والرسالة المركزية للقرآن الكريم، فقد نُزّل الكتاب الحكيم لكي يبني الإنسان عقلًا وروحًا وجسمًا، وقد حاول البحث تبيين هذه المسألة عبر بيان الأسس والأصول المبنائية التي يهدف القرآن إلى بناء ثقافته عليها، وهي الفطرة البشرية التي خلق الله بها الإنسان ومزج روحه وعقله بها، فهي مركز العواطف والإحساسات الروحية، ثمّ العقل الذي امتاز به الإنسان عن سائر المخلوقات، ثمّ الدين الممزوج بالروح والفكر الذي لا يستطيع أحد التخلّي عنه فهو أساس جذري في البناء الثقافي، ثمّ الأساس الأخير الذي يتشكّل بالسيرة العقلائية المركوزة التي تتوافق وتتواطؤ عقلاء العالم على اعتمادها في طريق الكمال الإنساني ونجاحه المادّي والمعنوي. وتظهر أهمّيّة أمثال هذا البحث في النظر إلى تركيز العالم الغربي عليه للقضاء على هويتنا الإسلامية عمومًا، ولزوم توجيه المجتمع الإسلامي إلى تأصيل فكره على هذه المباني والأسس اعتمادًا على النصوص القرآنية. وقد استفدنا من عدّة مناهج علمية في البحث، وهي: المنهج النقلي، والمنهج التوصيفي والمنهج التحليلي. وتوصّل البحث في نهايته إلى استخراج الأسس الرصينة التي اعتمد عليها القرآن لتحقّق هذا البناء العظيم والصرح المقدّس للثقافة الإلهية على الأرض الواقع.

الكلمات المفتاحية: البناء الثقافي، الأسس، الفطرة، العقل، الوحي، بناء العقلاء.

١. دكتوراه في التفسير المقارن، مجمع القران و الحديث، جامعه المصطفى العالميه، نيجيريا: hhmimam66@gmail.com

المقدّمة

إنّ البحث الذي بين أيدينا يهتمّ ويتوجّه إلى التركيز على الأمور التي يجب أن تتأصّل عليها ثقافة الأمّة الإسلامية روحيًّا وفكريًّا وسلوكيًّا في نظر القرآن الكريم؛ وهي الأسس القرآنية، وتتكوّن هذه الأسس بالعقل والفطرة والدين ثمّ السيرة العقلائية التي سنستنطق فيها الآيات القرآنية ونتابع التفاسير المعتبرة وآراء العلماء المتخصّصين في ذلك، مع إيراد الآيات المرتبطة في مباحثها المختصّة للخروج بالنتيجة المفيدة إن شاء الله. وسيجيب البحث عن السؤال التالي: ما أسس البناء الثقافي للمجتمع الإسلامي من منظور القرآن الكريم؟

وأهمّيّة البحث تكمن في تطرّقه إلى بيان ما يتكوّن عليه فكر الإنسان وبناؤه العقلي والروحي وتوجيه تحرّكاته الجسمية إلى ما يوصله نحو الكمال المطلوب. كما ويهدف البحث إلى مواجهة الغزو الثقافي على مجتمعاتنا الإسلامية، عن طريق إحياء تراثنا الوحياني والتعاليم السماوية، ومحاولة إرجاع هذه الأمّة العظيمة إلى ذاك التراث الإلهي الغني، والذي لا تحتاج إلى غيره مع وجوده، من خلال استخراج الأسس التي يريد الإسلام تأصيل ثقافة الإنسان عليها. ونعتقد بأنّ للبناء الثقافي أسسًا خاصّةً تمسّ البناء الفكري للفرد والأسرة والمجتمع والدولة في القرآن الكريم.

إنّ البحث في موضوع الثقافة البشرية بشكل عام ممّا لا يشكّ أحد في تطرّق العلماء إليه في كتبهم الفكرية والتاريخية وغيرها، وإن لم يكن بشكلٍ مستقلٍّ بحثًا موضوعيًّا منظّمًا ومرتّبًا في تأليفات خاصّة، ولكن في العقود الأخيرة نلاحظ الاهتمامات الخاصّة والتأليفات المتكاثرة فيه من الكتب والمقالات المنشورة في الصحف والمجلّات والإنترنت، وكذلك الرسائل الجامعية وغير ذلك. وفيما يتعلّق بالثقافة الإسلامية بشكل خاص أيضًا فإنّنا نشاهد تأليفاتٍ متنوّعةً وكثيرةً في المكتبات والجامعات، وكلّ مؤلّف له اتّجاهه الخاصّ في معالجة الموضوع، إمّا بنحو كلّي في التفاسير والموسوعات، أو بنحو جزئي في الكتب والمقالات، ولكن مع ذلك بقيت المسائل الأخرى لحدّ الآن لم يتطرّق إليها أحد بشكلٍ مستقلٍّ مع أهمّيّتها القصوى، أو كُتِب فيها لكن ببحثٍ غير وافٍ وكافٍ يخرج المسألة عن غموضها، من قبيل موضوع بحثنا في هذه المقالة. ولمّا كان القرآن الكريم هو المصدر الأساس للثقافة والتعاليم الإسلامية؛ فقد حاول بعض العلماء والباحثين استنطاق آياته الكريمة لتبيين حقائق ما جاء به من أسس الثقافة الغنيّة للعالم البشري أجمع؛ ولكن مع ذلك فإنّ البحث واستقصاء الموضوع ما زال في مرحلة بدوّه، ويحتاج إلى بحوث عميقة ومتكاثرة في كلّ المجالات. ومن هنا صممنا البحث قرآنيًّا بشكل منظّم ودقيق في هذه المقالة حول استخراج أسس هذا البناء من الكتاب الحكيم. وعليه فالجديد من البحث هو تحديده باستنطاق القرآن لاستخراج الأسس التي بنيت الثقافة عليها في التعاليم الإسلامية. وقد اعتمد الباحث على المناهج النقلي

والتوصيفي والتحليلي للخروج بالنتيجة الصحيحة.

١- كليات البحث

يتعلّق هذا المبحث هنا بدراسة المفردات الأساسية كمفاتيح للدخول في المسألة، ويشتمل على تعريف أربع كلمات أساسية، ثمّ التطرّق إلى المراد من البناء الثقافي قرآنيًّا كتعريف مقترح في هذه المقالة.

١-١ البناء لغةً واصطلاحا

البناء: لفظ مفرد معتلٌّ يائيٌّبمعنى المَبْنَي، وجمعه أَبْنِيَة وجمع جمعه أَبْنِيَات، فقد اشتقّ من بنى يبني بناءً وبنايةً وبنيانًا، حيث جاء في الأصل بمعنى ضمّ الشيء بعضه إلى بعض، وهو ما يقابل الهدم والخراب [ابن منظور، ٧١١ هـ، ١٤ / ٩٤]، ثم استعمل في معانٍ أخرى، مثل: الأَبْنِيَة، بمعنى البيوت التي تسكنها العرب في الصحراء، وبنى السفينة وبنى الخباء: أي أقام جدارها. ومن المجاز أيضًا: بنى مجده، وبنى بزوجته وغيرهما [المعجم الوسيط، المؤلفين: ٧٢]. وقال بعضهم إنّ الْبِنَاء يقصد به: اسم لما يبنى بناءً. [راجع: الراغب الإصفهاني، ٥٠٣ هـ، ١٤٧]

وأمّا في الاصطلاح: فقد اختلف المراد منه باختلاف العلوم والفنون التي استعمل فيها، وقد أورد التهانوي بعض المعاني الاصطلاحية بقوله: البناء بالكسر والمدّ يعني العمارة، وإحضار الزوجة للمنزل، وعدم إعراب اللفظ ... وهو عدم اختلاف آخر الكلمة باختلاف العوامل. [التهانوي ١١٤٨ هـ، ٢ / ٣٤٤]

وأما نحن فنقصد به هنا الهيكلية المنظمة والمتشابكة المتناسقة التي ترمي إلى تحقيق هدف واحد في مجالها.

١-٢ الثقافة لغةً واصطلاحا

والثقافة في المعنى اللغوي الذي يدور حول الكلمة هو الإدراك القويّ، ومنه الفهم والفطانة والذكاء. قال الجوهري: ثَقُفَ الرجل ثَقْفًا وثَقَافَةً، أي صار حاذقًا خفيفًا فهو ثَقْفٌ [الجوهري، ٣٩٣ هـ، ٤ / ١٣٣٤]. وعلى هذا يقول المصطفوي: إنّ الأصل الواحد في هذه المادّة: هو الإدراك الدقيق المحيط، بأن يكون الموضوع تحت النظر مع الحذق. وهذه الخصوصيّة منظورةٌ في كلّ من معاني الأخذ والدرك والفهم والظفر وإقامة العوج وغيرها [المصطفوي، ١٤٢٦ هـ، ٢ / ١٩]. ثمّ استعملت في معانٍ مختلفة، مثل ثَقِف الرجلَ: ظَفِرَ به، وثَقِفْتُه ثَقْفًا أَي صادَفْتُه، وثَقِفْنا فلانًا في موضع كذا أَي أَخَذْناه، والثَّقاف والثِّقافةُ: العمل بالسيف، والثِّقافُ: الخِصامَ والجِلادَ، والثِّقافُ ما تُسَوَّى به الرِّماحُ. وغير ذلك من المعاني الأخرى. [ابن

منظور، مصدر سابق، ١٩ فما بعد]

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم واستعملت بذلك المعنى الأصلي وما يتعلّق به، كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: ٥٧] يعني أدركتهم، ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً﴾ [سورة الأحزاب: ٦٠] يعني ظفروا بكم، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا﴾ [سورة آل عمران: ١١٢] يعني أينما وجدوا وأدركوا، ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [سورة النساء: ٩١]، يعني حيث وجدتموهم. [المصطفوي، مصدر سابق، ٢ / ١٩]

وفي الاصطلاح: تعدّ الثقافة من المصطلحات المعاصرة والحديثة التي لم تستعمل ولم تكن رائجةً بين العلماء والمفكّرين الإسلاميين في القرون الماضية، وإن كان مفهومها من المفاهيم التي قامت عليها حياة المجتمعات الإنسانية من بدوّ نشوئها إلى يومنا هذا، وهي التي جاء الأنبياء ﷺ لبنائها في المجتمعات البشرية، وركّز عليها الإسلام في جميع تعاليمه، لكن اليوم صارت الكلمة من المصطلحات الشائعة في الأوساط العلمية والاجتماعية، وقد عُرِّفت بتعاريف مختلفة وأحيانًا متناقضة، الأمر الذي يثبت لنا حداثة المصطلح وعدم قدمته.

فقد عرّفها بعض علماء الاجتماع الغربيين بأنّها: مجموعة من السلوكيات الاكتسابية والخصائص الاعتقادية لمجتمع معين. [بروس كوئن، ١٩٣٨ م، ٥٦]

والكلمة الأساسية في التعريف هي كون الثقافة أمرًا مكتسبًا وليست وراثيةً أو طبعيةً يتولّد الإنسان معها. نعم، هذا تعريف جيّد، لكنّ الإشكال الوارد عليه في نظرنا هو جعل الثقافة أمرًا سلوكيًّا، بينما هي أمر فكري ومتعلّق بالذهن والروح التي تظهر في من الأفعال والسلوكيات للمجتمعات، وهذه السلوكيات ما هي إلّا آثار تلك المكوّنات الذهنية الفكرية التي تظهر في الحركات والأنشطة الفردية والاجتماعية، وهي التي نسمّيها نحن بالثقافة.

وعرّفها المجمع اللغوي بأنّها: جملة العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق بها. [مجموعة من الدكاترة: ٨]

وبرأي هذا المجمع أنّ الثقافة عبارة عن العلوم والفنون. لكنّ العلوم ما هي إلّا أدوات يتشكّل منها بناء الثقافة وهيكليّتها، بينما الفنون من الأمور التي تتولّد من الثقافة؛ إذ إنّ الفنون نتاج للأفكار والتصوّرات الذهنية للإنسان. وعليه فالعلوم والفنون ليست هي نفسها بالثقافة، وإنّما تسمّى بهذا العنوان بمعنى تسمية الشيء بأدواته أو ما يستنتج منه.

والتربويون ينظرون إليها بأنّها: مجموعة من الأفكار والمثل والمعتقدات والتقاليد والعادات والمهارات

وطرق التفكير وأساليب الحياة والنظام الأسري وتراث الماضي بقصصه ورواياته وأساطيره وأبطاله ووسائل الاتصال والانتقال وطبيعة المؤسّسات الاجتماعية فى المجتمع الواحد. [المصدر نفسه]

وطبقًا لهذا التعريف نفهم أنّ المراد بالثقافة هو كلّ ما تتكوّن عليه الحياة الاجتماعية لمجتمع أو أمّة ما، سواءٌ يختصّ به هذا المجتمع أو يشمله وغيره من المجتمعات الأخرى. وهذه المكوّنات شاملة للأمور المادّية والمعنوية. بينما الثقافة في الحقيقة أمر ذهني متكوّن ومتشكّل من الأفكار كما ذكر في صدر التعريف؛ وعليه فقوله مجموعة من الأفكار مقبول، وغيره يحتاج إلى المناقشة.

وقد جاء تعريفها في مقالة لرابطة العالم الإسلامي بأنّها: كلّ ما يكوّن ذهنية مجتمعٍ أو أمّةٍ ما – من دين ولغة وتاريخ – تؤّثر بالطبع على إنتاج أخلاقها وآدابها وتصوّراتها ورؤيتها للكون والحياة والعادات والأعراف، حتّى يصل تأثيرها إلى لباسها وسكنها، بل وأساليبها في المخاطبات والمكاتبات والحركات والسكنات. [السعيدي، ٤، http://www.muslimworldleague.com]

إن هذا التعريف يؤيد ما نعتقد به من كون الثقافة أمرًا ذهنيًّا متكوّنًا من الأفكار والمعلومات المكتسبة لفرد أو مجموعة أو مجتمع ومجتمعات؛ وإن كان تعريف الرابطة أيضًا غير صحيح، إذ عدّ الثقافة بأنّها "ما يكوّن الذهنية" لا الذهنية نفسها، فهو كسابقيه في تعريف الشيء بأدواته التي يتكوّن منها؛ بينما نحن نعتقد بكونها الذهنية المتشكّلة والمتألّفة من تلك الأدوات، لا الأدوات نفسها.

ومشكلة التعاريف السابقة هي الاكتفاء في تعريف الشيء بأدواته التي يتكوّن منها ويتحقّق بها، أو ما يتولّد ويستنتج منها، بينما ينبغي أن يعرف بما يتكوّن من تلك الأدوات والوسائل لا نفسها. نعم، تعريف الشيء بما يلازمه قد يكون مقبولًا تسامحًا.

فالثقافة كما نعتقد بها هي تلك العقلية والأفكار المكتسبة المتكوّنة من العلوم والتقاليد والعادات والتواريخ وما شابه ذلك، والتي تكون متراسخةً في ذهن وروح فرد أو مجتمع أو أمّة، بحيث تؤثّر في جميع حركاتها وحياتها المادّية والمعنوية. إذن فالثقافة الإسلامية عبارة عن تلك العقلية والأفكار المكتسبة من النصوص والتعاليم الإسلامية التي تكون مؤثّرةً على سلوك الفرد والأمّة الإسلامية في جميع حياتها وأنشطها المادّية والمعنوية التي تتطابق مع تعاليم تلك النصوص المقدّسة.

٣-١ القرآن لغةً واصطلاحا

اختلف اللغويون في جذر مفرة (قرأ)، هل هي من (قري) معتل يائي، أو من (قرو) معتل واوي، أو من (قرأ) مهموز اللام؟ ومع ذلك فقد أجمعوا في أن الكلمة لها معنى الجمع والاجتماع الذي يرجع إليه معنى القرآن الكريم، حيث عدّوه لغةً بضم الحروف بعضها إلي بعض في الترتيل [ابن فارس ٣٩٥ هـ، ٥ / ٧٨

و٧٩]، فالقراءة في اللغة هي ضمّ الحروف بعضها إلى بعض، ومعنى القرآن لغةً راجع إلى هذا، وسمّي بذلك لاجتماعه الحروف والكلمات، أو لاجتماعه السور والأحكام والقصص وغير ذلك.

وفي الاصطلاح فقد عرّفه العلماء بتعريفات كثيرة ومتنوّعة من حيث الإطناب والاختصار، وكلٌّ له هدفه الذي يرمي إليه في تعريفه. ومن أجمع وأوفى ما قالوا فيه هو: القرآن كلام اللّه المعجز، المنزّل على خاتم الأنبياء والمرسلين، بواسطة الأمين جبريل عليه السلام المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس. [الصابوني، ٢٠٢١ م، ٨؛ الحكيم، ١٤٢٨ هـ ١٧؛ الصالح، ١٩٨٦ م، ١٧؛ الزرقاني، ١٩٤٨ م، ١٢]

فلوجود هذه الخصائص والصفات المذكورة الفذّة لهذا الكتاب الكريم قال الشيخ علي الصابوني: «أنزله اللّه تبارك وتعالى ليكون دستورًا للأمّة، وهدايةً للخلق، وليكون آيةً على صدق الرسول، برهانًا ساطعًا على نبوّته ورسالته، وحجّةً قائمةً إلى يوم الدين تشهد بأنّه تنزيل الحكيم الحميد، بل هو المعجزة الخالدة التي تتحدّى الأجيال والأمم على كرّ الأزمان ومرّ الدهور» [الصابوني، مصدر سابق، ٨ و٩].

١-٤ الأسس لغةً واصطلاحا

والأسس في اللغة جمع أساس، وهو مأخوذ من (أ سَ سَ) بمعنى الأصل والجذور لكلّ شيء، وإن اشتهر في الاستعمال بمعنى أصل البناء وقواعدها، حيث قال بعضهم: أسّ: يدلّ على الأصل والشيء الوطيد الثابت، فالأُسّ أصل البناء، وجمعه آساس. [ابن فارس، مصدر سابق، ١ / ١٤]

وفي الاصطلاح: فقد عُرِّف الأسس بأنّه مجموع ما تتقوّم به الأرضية التي تبتنى عليها أيّ قاعدة من الأمور الحسّيّة والمعنوية. [انظر: الحجّار: ١٤ - ١٧]

والأسس هنا هي البنى التحتية التي يتوقّف عليها غيرها من البناء الفوقي والظاهري. إذن الأسس والأصول والبنى التحتية في هذا البحث بمعنًى واحد.

١-٥ التعريف بالبناء الثقافي في القرآن

من خلال التتبّع والاستقصاء في كتب العلماء والمحقّقين لم نوفق بالحصول على تعريف البناء الثقافي بشكل عام، أو البناء الثقافي في القرآن بشكل خاص، ويمكن أن يكون السبب في ذلك هو عدم كتابة البحوث والتأليفات في هذا المجال بشكل مطلوب، بحيث يُكلّف على الباحثين التدقيق في كلّ ما يرتبط بذلك.

فالبناء الثقافي بشكل مطلق هو: ذلك الهيكل المنظّم المتشابك المتناسق من العقلية والأفكار

المكتسبة المتكوّنة من العلوم والتقاليد والعادات والتواريخ وغيرها، والتي تكون متراسخة في ذهن وروح فرد أو مجتمع وأمّة، بحيث تؤثّر في جميع حياتها المادّية والمعنوية لتحقيق هدف واحد فيهما.

فالبناء الثقافي في القرآن الكريم هو ذلك الهيكل للعقلية والأفكار المكتسبة من النصوص والتعاليم الإسلامية، التي تكون مؤثّرة على سلوك الفرد والأمّة الإسلامية في جميع حياتها وأنشطها المادّية والمعنوية، والتي تتطابق مع تعاليم تلك النصوص المقدّسة؛ لتحقيق السعادة المادّية والمعنوية في الدارين.

فالشيء الذي نريد البحث عنه هو الأسس والأصول التي قامت عليها تلك الهيكلية الثقافية القرآنية، والتي يجب أن تكون مؤثّرةً في تحديد التصوّر والسلوك لكلّ فرد ومجتمع إسلامي.

٢- أسس البناء الثقافي

إن للقرآن الكريم منظومة ثقافةٍ خاصّةً به، والتي تتميّز عن سائر الثقافات البشرية في موارد كثيرة؛ إذ إنّ هذه إلهية وتلك إنسانية، فالإلهية تقصد بناء الإنسان ككلٍّ وتلك ترمي في الغالب إلى منافع شخصية وفردية، وللإنسان مبانيه وأصوله في تكوين ثقافته وحضارته، فهي المنافع الشخصية والمعايير الإنسانية، وللقرآن أسسه وأصوله التي بني ثقافته عليها، وهي الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها، والعقل الذي أعطاه لكي يساعده في الترقّي إلى الكمال، والدين الذي أنزله على رسله ليرشد الناس إلى طريق مستقيم، ثمّ سيرة العقلاء التي يديرون أمورهم الاجتماعية عليها. فهذه هي الركيزة الأساسية والبنى التحتية التي اعتمدها القرآن في بناء ثقافته الإلهية عليها، فمتى سلك الإنسان هذا الطريق في تكوين فكره الفردي والاجتماعي، فسوف يسوقه نحو الترقّي المادّي والمعنوي في الدارين، وفي النهاية الوصول إلى الكمال والسعادة الأبدية. وفي هذا المبحث نودّ الدراسة حول هذه الأسس في الرؤية القرآنية، ونسأل الله التوفيق والسداد.

٢-١ الفطرة الإنسانية

إنّ الأساس الأوّل في البناء الثقافي هو الفطرة التي خلقها الله الإنسان وأودعها في كيانه وعمقه واختصّه بها، وجعلها كمصدر، فيها كلّيّات ومبادئ المعارف والمعلومات التي يحتاج إليها في بناء شخصيته وروحه على النحو السليم.

فالفطرة في اللغة: يختلف أعلام اللغة في المعنى الأصلي لها، فيرى بعضهم أنّها وضعت بمعنى الفتح والإبراز مطلقًا [راجع: ابن فارس، مصدر سابق، ٤ / ٥١٠]، ويرى الآخر أنّها جاءت بمعنى الشقّ طولًا [الراغب الإصفهاني، مصدر سابق، ٦٤٠]، بينما الآخر يذهب إلى كون المراد منها في الأصل حدوث التحوّل والتغيّر بعد الإيجاد في المرتبة الأولى [المصطفوي، مصدر سابق، ٩ / ١١٢]. والمهم هو اتّفاقهم

في كون الكلمة مستعملةً في اللغة بمعنى الخلق والإيجاد والإبداع والإبداء. ونكتفي بهذا القدر في التحليل وتبيين المعنى المراد منها لغةً.

وفي الإصطلاح فقد عرّفها العلماء أيضًا بتعاريف مختلفة وإن كانت متقاربةً في المضمون. منها: أنّ الفطرة عبارة عن هداية إلهية توجد في كلّ فرد من أفراد الانسان، ومثلها مثل البوصلة؛ لتميّز للإنسان الطريق الصحيح من غيره وتدلّه عليه. [الموسوي: www.ruqayah.net/subject.php?id=830: ١٧/١١/٢٠٠٩]. وعرّفها الشهيد مطهري بقوله: «الفطرة الإنسانية تعني الخصائص الموجودة في أصل خلقة الإنسان» [مطهري، ١٣٥٨ ش، ٣ / ٤٥٥]. وقال الشيخ جوادي آملي: الفطرة ... يعني تلك الخلقة المختصّة للإنسان المتلبسة بالميل والشهود الخاصّ في وجوده [جوادي آملي (أ): ٢٤]. فمعنى الفطرة في الجملة هو أنّها خلقة مودعة في الإنسان ذات خصائص متميّزة، تفرّق الإنسان عن سرائر المخلوقات، وهي مصدر للمعلومات الأوّلية التي تتطابق مع المدركات العقلية السليمة والدين الإلهي.

وفي الكشف عن المراد منها قرآنيًّا، فللمفسّرين أيضًا توضيحات مهمّة ومفصّلة، ونركّز هنا على أقوالهم في آية الفطرة التي هي أهمّ ما جاء لبيان أهمّيّتها في بناء شخصية الإنسان وثقافته.

يقول العلّامة الطباطبائي: «الفطرة بناء نوعٍ من الفطر بمعنى الإيجاد والإبداع و﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ منصوب على الإغراء أي الزم الفطرة، ففيه إشارة إلى أنّ هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي تهتف به الخلقة وتهدي إليه الفطرة الإلهية التي لا تبديل لها. وذلك أنّه ليس الدين إلّا سنّة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتّى يسعد في حياته، فلا غاية للإنسان يتبعها إلّا السعادة وقد هدي كلّ نوعٍ من أنواع الخليقة إلى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته، وجهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز» [الطباطبائي، ١٤٠٢ هـ، ١٦ / ١٧٨ و١٧٩].

وخلاصة قوله هو أنّ الفطرة خلقة، وأنّ الدين خاصّيّة من مختصّاتها، وكلّ نوعٍ من أنواع الخليقة له نوع مختصٌّ له من الفطرة التي يهتدي بها إلى سعادته. ولا يستطيع أحد تبديلها لأنّها خارجة عن قدرته.

يقول الشيخ المراغي في هذا المعني: «﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ أي الزموا خلقة الله التي خلق الناس عليها، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به؛ لكونه موافقًا لما يهدى إليه العقل، ويرشد إليه صحيح النظر ... ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ أي لا ينبغى أن تبدّل فطرة الله أو تغيّر، وهذا خبر فى معنى النهي كأنّه قيل: لا تبدّلوا دين الله بالشرك» [المراغي، ١٣٧١ هـ، ٢١ / ٤٥ ـ ٤٦].

ويتّفق الشيخ المراغي مع العلّامة في كونها خلقةً ذات خصائص، لكنّه يرى أنّها قابلة للتبديل والتغيير إذا انحرف الإنسان وسلك طريقًا مخالفًا للفطرة، خلافًا لما ذهب إليه علماء الإمامية من أنّها لا تتغيّر ولا

تتبدّل أو لا تزول من الإنسان؛ ولكنّها قد تضعف وتختفي إذا طغى عليها الإنسان ونسي إرشاداتها وما تدعوه إليه من أوامرها السليمة.

ويقول صاحب الفرقان: «إن ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ هي الذاتية العريقة الإنسانية منذ ﴿أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وهو الروح الإنساني، وعلى مدار حياته صغيرًا وكبيرًا عالمًا وجاهلًا عاقلًا ومجنونًا، فطالما العقل يأتي بعد ردح من خلق الروح، وقد يزول بالجنون، ولكنّ الفطرة الإنسانية ليست لتزول، فهي ما به الإنسان إنسان وما أشبه من نفسياته، ومهما زال عن الإنسان أيّ شيء منه ليست لتزول عنه الفطرة الإنسانية» [الصادقي الطهراني، ١٣٩٠ ش، ج ١٢، ص ٣٣].

ويعني أنّ خصائص الفطرة لا تزول وهي باقية ما بقي الإنسان وروحه، خلافًا للعقل الذي ليس له هذه الخاصّيّة؛ فإنّه قد نجد الإنسان مجنونًا خاليًا من العقل الذي به يستطيع التفكير ويصل إلى التصميم، بينما الفطرة حتّى المجنون يتأثّر بها في سلوكيّاته البشرية.

وقال السيّد المدرّسي: «للإنسان فطرة أوّليّة أنعم الله بها عليه، وبهذه الفطرة يميّز البشر الخير من الشرّ، والهدى من الضلالة، وإليها يحتكم أهل الأرض حين يتنازعون، فالفداء والإحسان والشجاعة والسخاء والبطولة صفات جيّدة، وعكسها رذيلة، تجد هذا عند المسلم والكافر، والحضري والبدويّ، وحتّى الإنسان البدائي شبه الوحشي، إنّها مقاييس عامّة زوّد الله البشر بها ليتلمس بها طريقه» [المدرّسي، ٣ / ١٦٠].

عرّف السيّد المدرّسي الفطرة عن طريق بيان خصائصها وفوائدها التي تتميّز بها في هداية الإنسان إلى الكمال ومصالحه الدنيوية والأخروية، ومن أسباب إنزال الكتب السماوية هو انحراف الإنسان عن الفطرة والهداية التكوينية، فأرسل الله ﷻ رسله بالبيّنات وأنزل معهم الكتاب والميزان لإقامة الناس القسط والرجوع إلى فطرتهم الإلهية السليمة.

والخلاصة أنّ الفطرة خلقة خاصّة وميزان روحي ممتزجة بمعلومات ومبادئ أوّليّة لهداية الإنسان إلى تمييز الخير من الشرّ، والصحيح من الفاسد في جميع الأمور التي يواجهها في حياته المادّية والمعنوية، فهي أساس من أهمّ الأسس التي تبني شخصية الإنسان وتساعده في الوصول إلى الكمال والسعادة في الدارين. والفطرة الإنسانية لها خصائص ومميّزات تفترق بها عن غيرها من الأحوال النفسية مثل الغرائز، أو الأمور التي يتعلّمها الإنسان ويتأثّر بها في حياته الاجتماعية، مثل العادات والثقافات البشرية، أو الأشياء اللااختيارية ممّا يشترك فيها الإنسان مع غيره من المخلوقات الأخرى، مثل الأمور الطبيعية التي يشترك مع الحيوانات والجمادات، ومن أهمّ هذه الخصائص ما يلي:

الأولى: أنّ المدركات والمعارف الفطرية، ليست من جنس العلم الحصولي الذي يأتيه من الخارج، وإنّما هي من العلم الحضوري الذي كان في مكنون نفسه وممزوجًا مع روحه، فمثال ذلك: ركون الإنسان وحبّه لمن تركن إليه نفسه، والميل إلى الصدق في الأقوال والأفعال، وحبّ الأمور التي توصل الإنسان إلى الكمال، فكلّها من الأمور الفطرية التي جبلت في قلب كلّ إنسان.

الثانية: فالفطرة الإنسانية لا يمكن إزالتها عن طريق الإزعاج والإجبار، فهي غير قابلة للتغيير والتبديل، بل هي ثابتة وباقية ما بقي الإنسان. نعم، يمكن تضعيفها وإخفاؤها عن طريق مخالفة مدركاتها وهدايتها وإخمادها باتّباع الهوى والشهوات، ولكنّ إزالتها عن وجود الإنسان غير ممكن. فمثلًا في العقود أو القرون الأخيرة حاول كثير من المفكّرين الغربيين وفلاسفتهم الفرار عن الأمور المعنوية، واعتبار الدين أمرًا اجتماعيًّا ينشأ من محاولة الإنسان التخلّص ممّا يخافه؛ فأوقعوا أنفسهم ومجتمعاتهم في مأزق كبير، وسرعان ما أدركوا خطأهم في هذه النظرية، واليوم يحاولون إرجاع الناس إلى المعنويات التي فرّوا عنها من قبل.

الثالثة: الشمولية والجامعية، فممّا تختص به الفطرة الإنسانية هو أنّها شاملة لكلّ نوع البشر، فهي خارجة عن حدود الزمان والمكان، وليست مختصّةً بقوم دون قوم آخرين، أو منطقة دون منطقة أخرى، ولا علاقة لها بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، وغير ذلك من الأمور المؤثّرة على خلفيات الإنسان أو مجتمعاته، بل إنّها حقيقة وجود كلّ إنسان وخلقته. فمثلًا لا يوجد إنسان ليس في نفسه صفة حبّ الاستطلاع والميل إلى تعلّم العلوم والمعارف، فالإنسان دائمًا يميل إلى معرفة كلّ ما خفي عنه، أو رآه فلم يدرك حقيقته، من هنا يأتي البحث والتحقيق في المسائل المجهولة للوصول إلى فهمها وإدراكها. وكذلك الميل إلى وجود معبود والخضوع أمامه، ولم يوجد مجتمع طول تاريخ سكونة الإنسان على الكرة الأرضية – كما هو معروف بين الباحثين والمحقّقين في التاريخ البشري والعلم الاجتماعي – من دون التمسّك بمعبود، إمّا الله ﷻ أو غيره، لسبب من الأسباب التي ليس هنا محلّ البحث عنها. وهو شيء يؤيده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

الرابعة: ولمّا كان إدراك الإنسان وميوله الفطري يتوجّه نحو الوجود المحض والكمال المطلق، فله الدرجة والقيمة الخاصّة التي هي ملاك وصوله إلى المرتبة العالية والكمال المطلوب له، وهذه الخاصّيّة من الأمور الأساسية، والتي بواسطتها يعرف الفرق بين الإنسان وغيره من الحيوانات الأخرى. [انظر: مطهري (ب): ٢٥ و٢٦]

يذكر الشهيد المطهري خمسة أمور من الميول الفطرية والتي يعبر عنها بالأصول الممزوجة بروح الإنسان، وهي: الميل إلى معرفة الحقائق والعلوم، والميل إلى الأدب والجمال، والميل إلى الخير والفضيلة، والميل إلى الإبداع والصناعة، والميل إلى العشق والعبودية، وأشار إلى تفسيرين لهذه الأمور، فالأول مادّي ويُرجِعها إلى التحليل المادّي، والثاني معنوي ويرجعها إلى الحقيقة الباطنية وكون منبعها ومرجعها الأصلي هو الفطرة. [راجع: مطهري، مصدر سابق (أ)، ٣ / ٥١٠]

ويقول الآخر: لا تكتمل وتتوازن حياة الإنسان إلّا إذا عاش على مقتضى متطلّبات الفطرة ومتوخّيات الغرائز، بل العيش على خلاف هذه المتقضيات يؤدّي بالحياة البشرية إلى الهلاك، وما مثل هذا إلّا كالسابح في عكس تيّار الماء، لن تكون عاقبته إلّا الإرهاق وانهيار القوى فيتوقّف عن السباحة ويبتلعه الماء. [السبحاني (ج)، ٣ / ٣٩]

وفيما يرجع إلى محاكمة الإنسان وتأديبه الفطري لكي يسير على الطريق الصحيح نحو بناء روحه وشخصيّته بشكل كامل، يقول الشيخ مكارم الشيرازي: «توجد في باطن الإنسان محكمةٌ عجيبةٌ يمكن تسميتها القيامة الصغرى، تحاكم الإنسان على أعماله، فتشجّعه على الحسنات، وتوبّخه على السيّئات، ونجد هذه التشجيعات والعقوبات في باطننا جميعًا (بالطبع مع وجود اختلاف)، وهي نفسها التي نقول عنها تارةً: إنّ ضميرنا راضٍ، وتارةً: إنّ ضميرنا يؤنّبنا، إلى حدٍّ أنّه يسلب منّا النوم، بل قد يؤدّي – أحيانًا إلى نتائج مأساوية مثل الانتحار والجنون والابتلاء بأمراض نفسية، والآية: ﴿فَرَجَعُوا الَى انْفُسِهِمْ فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ تشير إلى هذا القسم» [مكارم الشيرازي (أ)، ١ / ١٥٦].

فالإنسان لا يمكن أن يصل إلى الكمال والبناء الثقافي والاجتماعي الصحيح من دون القبول والركون إلى نداء فطرته، ويجب عليه أن يتحرّك في جميع أموره طبق هدايتها وإرشاداتها؛ لأنّها هدية إلهية وخلقة ربّانية، وتتطابق مع ما جاء به الأنبياء والرسل، ويلبّي الفكر نداءها ولا يخالفها العقل السليم، فبناء الأمّة الواحدة على المنهج الإلهي والأسس الدينية المعتبرة ممكن ومحقّق بتأصيله على هذه الصبغة الإلهية، وبدونها تسقط الأمّة وتتهاوي إلى المهالك الأبدية التي لا خلاص لها من دون الرجوع إليها. فممّا تقدّم نستنتج كون الفطرة أصلًا جذريًّا للبناء الثقافي في نظر القرآن الكريم، والذي يعني تأصيل الثقافة عليها كأساس ومنطلق أصلي.

وممّا يؤيّد هذه الأقوال من الروايات ما جاء عن أمير المؤمنين عَلِيِّبْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ؛ فَإِنَّهَا الْفِطْرَة» [الكوفي، حدود: ٢٥٤ هـ، الزهد، ١٣].

وهذا كله يعني أنّ الدين الذي هو أمر فطري وله أصالة وجذر منها. وفي تفسير القمي: «أَنَّ مَيْلَ النَّفْسِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسَنٍ وَإِعْجَابَهَا بِهِ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَوْلَاهُ لَمَا اسْتُحْسِنَ الِانْتِهَاءُ عَمَّا نُهِيَ عَنْهُ، بَلْ عَدَمُ الْمَيْلِ دَلِيلُ فُتُورٍ فِي الْفِطْرَةِ الْأَوَّلِيَّةِ» [القمّي، ٢ / ١٧٣]، أي أنّ الفطرة أصل وأساس في تكوين حياة الإنسان بجميع أبعادها الدينية والثقافية.

٢-٢ العقل

إنّ أهمّيّة العقل وكونه من أهمّ وأعظم النعم الإلهية للإنسان والتي بها يفرّق بين الحقّ وضدِه، أو الكذب ونقيضه، ويميّزه عن سائر الحيوانات، كما يجعله موضعًا للتكليف الذي يثاب ويعاقب عليه ممّا يجعله أصلًا من الأصول التي لا بدّ من تأصيل الثقافة عليها؛ ولذلك كانت هذه النعمة الفذّة محلّ اهتمام القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهّرة، وجاء الثناء الوافر والاحترام الكامل لها، حتّى أنّنا نجد في كثير من كتبنا الروائية عن أهل البيت ﷺ نجد أوّل باب يفتتح به المؤلّف كتابه هو باب العقل والجهل؛ الأمر الذي يكشف المكانة المرموقة والمنزلة الرفيعة لهذه الموهبة الإلهية في الإسلام عمومًا وفي هذه المدرسة خصوصًا.

والعقل لغةً عبّر عنه بعضهم بأنّه ما يقابل الجهل [الفراهيدي، ١٣٧ هـ ١ / ١٥٩]، وعند الآخرين ما يناقض الحمق [راجع: ابن منظور، مصدر سابق، ١١ / ٤٥٨]، وأعطاه بعضهم معنًى كلّيًا تتفرّع منه معانٍ أخرى؛ يعني الإمساك أو الاستمساك، والذي أخرج المعاني الاستعمالية والمجازية الأخرى منه [الراغب الإصفهاني، مصدر سابق، ٥٧٧]. وعلى كل حال؛ ففي هذا البحث نختار ما ذهب إليه الراغب، وهو المعنى الكلّي والشامل للعقل، ومنه كونه قوّةً تمنع صاحبها عن الوقوع في القبيح، أو بأنّه هو قوّة تشخيص الصلاح والفساد في جريان الحياة ماديًّا ومعنويًّا، ثمّ ضبط النفس وحبسه عليها. [انظر: المصطفوي، ٨ / ١٩٦]

ويسمّى العقل بالأرب حيث يعني العقل الوافر، واللبّ وهو العقل الخالص، والنهى وهو ذروة العقل ومنتهاه، والحجى وهو العقل الثابت الذي لا يغيب عن صاحبه، وقد يسمّى بالذهن أيضًا بمعنى الفهم الصحيح. [انظر: العسكري، ٣٩٥ هـ، ٧٧]

وأمّا العقل في الاصطلاح فقد قال بعضهم: بأنّه عبارة عن قوّة التمييز بين الحقّ والباطل [الباحثين، ٢١٩]، فالقوّة للتمييز هنا هو العقل. وعرّفه آخرون بأنّه قوّة إدراك الخير والشرّ والتمييز بينهما، والتمكّن من معرفة أسباب الأمور [حمودة، ١ / ٣٦]. وقوّة الإدراك وقوّة التمييز وقوّة التمكّن؛ يجعل هذا التعريف الأخير أوسع من السابق؛ لأنّه به يمكن التمييز وتحليل العلل وأسباب الأمور. وعلى كلّ حال؛ فمفهوم العقل واضح، وهو قوّة الإدراك التي بها يميّز الإنسان الخير من الشرّ، ويعرف علل الأشياء وأسبابها. وهذا

التعريف يتناسب ومفهومه في بعض الآيات كما يأتي.

وعادةً يقسّم الحكماء العقل إلى النظري والعملي كما قال السيّد الخرّازي في التمييز بينهما: «والتفاوت بينهما إنّما هو بتفاوت المدركات، فإن كان المدرك ممّا ينبغي أن يعلم مثل قولهم: الكلّ أعظم من الجزء الذي لا علاقة له بالعمل يسمى إدراكه "عقلًا نظريًّا"، وإن كان المدرك ممّا ينبغي أن يفعل ويؤتى به، أو لا يفعل، مثل حسن العدل وقبح الظلم، يسمّى إدراكه "عقلًا عمليًّا"» [الخرازي، ١ / ١١٣].

وقد استعمل مفردة العقل في القرآن الكريم بمعنى الفهم والعلم أو التمييز بين الخير والشرّ كما في قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٥]، و﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٣]، وقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٤].

ومعنى: "عقلوه" و"يعقلون" هنا هو علموه ويعلمون أو يعرفون أو يفهمون، ممّا يدلّ على أنّ العقل يعني: العلم والمعرفة والفهم. والآية الأخيرة دالّةٌ على مطالبة الله عباده بالتمييز بين الخير والشرّ. وهذا ما يوضّح لنا استعمال العقل في القرآن: إمّا بمعنى الفهم والإدراك، أو بمعنى التمييز بين الخير والشرّ، وإمساك النفس عن الأمور القبيحة. [انظر: عبيدات، ٢٦ ـ ٢٨]

وممّا عبّره المفسرون في مكانة العقل في القرآن: «إنّ القرآن يعتبر العقل من المصادر الأصلية للعلم والمعرفة، وقد أولاه أهميّةً قصوى، ويدعو الجميع للتعقّل والتفكّر في جميع الأمور، والتفت التفاتًا خاصًّا إلى ماهيّة الروح الإنسانية وأبعادها المختلفة، وأكّد على كلّ من هذه الأبعاد، وعبّر عن نشاطات الروح في مجال إدراك الواقعيات بتعبيرات مختلفة، وقد استخدم واستفاد من كلّ تعبير في محلّه» [مكارم الشيرازي (ب): ١ / ١١٩]. ويؤكّد العلّامة الطباطبائي هذا المعنى للعقل والمراد الحقيقي له في القرآن الكريم حيث يقول: «وعلى هذا جرى كلامه تعالى، فإنّه يعرف العقل بما ينتفع به الإنسان في دينه، ويركب به هداه إلى حقائق المعارف وصالح العمل، وإذا لم يجر على هذا المجرى فلا يسمّى عقلًا، وإن عمل في الخير والشرّ الدنيوي فقط. [الطباطبائي: ٢ / ٢٤٩ و٢٥٠]

إنّ القوّة العقلية والثناء عليها من امتيازات الآيات القرآنية والتعاليم الإسلامية، حيث تؤيّده وترغّب الإنسان في العمل به، وتعتبر العقلاء فقط المخاطبين بها دون غيرهم. وبمراجعة الآيات الكريمة في أماكن متفاوتة نشاهد تعبيراتٍ مختلفةً كلّها تدلّ على العقل، وتشيد بالعقلاء، مثل هذه الجمل الآتية: "تتفكّرون" أو "يتفكّرون" و"يعقلون" أو "تعقلون" و"يفقهون" أو "تفقهون" و"تشعرون" أو "يشعرون" و"يعلمون" أو "تعلمون" و"تذّكّرون" أو "تتذكّرون" وغير ذلك من الألفاظ والتعابير الأخرى. وبهذا السبب أشار الفيلسوف

الإسلامي المعاصر جوادي آملي إلى وجود أكثر من ثلاثمئة آية قرآنية تدلّ على أهمّيّة العقل ومكانته الفائقة، والاستدلال به في مواضع كثيرة حيث يقول بنفس عبارته: «في أكثر من ثلاث مئة آية يدعو القرآن المجتمع الإنساني إلى التعقّل والتفكّر والتدبّر» [جوادي آملي (ب)، ١٦٩].

فكثرة ذكر العقل وإرجاع الناس إليه في كثير من أمورهم أمر مسلّمٌ به في القرآن الكريم، فعدم الاتّكاء بهذه القوّة والاستفادة منها بنحو صحيح هو العامل الأساسي في سقوط الإنسان وخسرانه عاجلًا أم آجلًا، بل حتّى الدين والقيام به على النحو المقبول عند الشارع مبني على العقل والعمل وفقه، حيث نرى بعض النصوص الإسلامية تبيّن هذه الحقيقة: "من لا عقل له لا دين له" [الكراجكي، ٤٤٩ هـ، ٢، ص ٣٠]. ما يعني أنّ العقل والدين شيئان متماسكان ولا ينفصلان؛ فلذلك نرى كثيرًا من الآيات تجعل مخاطبها هم العقلاء وأصحاب العلم والمعرفة دون غيرهم من السفهاء والجهلة.

فالعقل هو الذي جعله الشارع المقدّس مناط التكليف والإنسانية، إذ يرشدك إلى ما فيه الخير والصلاح ويرغّبك فيه، ويحذّرك عن ما فيه الشرّ والفساد ويمنعك منه، فيدعوك إلى تحمّل المسؤولية والصبر على المصائب والصعوبات التي بها تستطيع الترقّي إلى المكانة العالية والمنزلة الرفيعة عند الخالق والمخلوق، ويجعلك منتصرًا في كلّ ما توجّهت وثابرت عليه، فهذا من أهمّ ما يوضّح لنا مكانة العقل وقيمته في التعاليم القرآنية وكونه أساسًا متينًا في البناء الثقافي أيضًا.

وللراغب الإصفهاني إشارة لطيفة إلى أهمّيّة العقل ومكانته في القرآن الكريم عند بيانه العلاقة بين العقل والشرع، بحيث لا يستغني كلّ واحدٍ عن الآخر، كما جاء في كتابه القيّم "تفصيل النشأتين" إذ يقول: «اعلم أنّ العقل لن يهتدي إلّا بالشرع، والشرع لن يتبيّن إلّا بالعقل، والعقل كالأسّ، والشرع كالبناء، ولن يغني أسٌّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسٌّ. وأيضًا فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاعٌ من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصرٌ؛ فلهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾» [الراغب الأصفهاني، ٥٠٢ هـ (أ): ١٧؛ حيدر الآملي، ٧٨٧ هـ، ٣، ص ٩٥ و٩٦].

وعلى كلّ حال فأهمّية العقل ومكانته في التعاليم القرآنية أمرٌ مسلّمٌ به، وهو محلّ اتّفاق جميع العلماء والمفكّرين الإسلاميين، فهو من أبرز أسرار تقدّم المسلمين وترقّيهم في القرون الأولى، إذ توجّهوا إليه بكلّ قوّة، وتعاملوا مع العالم وفقًا لإرشاداته، فوفّقوا في نشر ثقافة الإسلام في الآفاق وبين الأمم المختلفة، ودخل فيه كثير من البلدان والمناطق النائية من دون قتال، بل وصل إليهم عن طريق الثقافة والحضارة الإسلامية التي تسمح للإنسان وتدعوه إلى استعمال عقله، فيختار ما يتناسب مع فطرته وعقله من دون أيّة

مشاجرة وقتال، فهذا من الثقافة القرآنية وإليها يدعو الإنسان ويتعامل معه.

إنّ القرآن الحكيم ذكر وظائف ومسؤوليات كثيرة لهذا العطاء الإلهي والموهبة الربّانية التي بها يتميّز الإنسان عن سائر الحيوانات. ومن أهمّها: التعقّل، والتفكّر، والتذكّر، والعبرة، والتفقّه، والتدبّر، والتبصرة، والشعور، والنظر العقلي، والرؤية العقلية، وغير ذلك من العبارات الأخرى التي تكشف عن هذه الوظائف القيّمة والمهمّة. [انظر: الحدري، ١٤٠]

وعليه فالعقل من أهمّ وأقوى أسس البناء الثقافي الذي هو موضوع بحثنا الأصلي، ومرادنا من الأساس هنا هو كونه مستندًا وأصلًا من الأصول التي لا يمكن تجاهلها أو التساهل بها لكلّ قوم أو مجتمع أو أمّة تريد بناء نفسها وبقائها وتقدّمها في كلّ المجالات، فإنّ مخالفة العقل وإرشاداته من الأخطاء الجذرية التي لا يمكن أن تغفر لكلّ مجموعة إنسانية تتخطّى حدوده وتتعدّى عليها.

فلذلك نرى الدين الإسلامي والنصوص الإسلامية من الكتاب والسنّة وإجماع العلماء المسلمين؛ وخاصّةً أتباع مدرسة أهل البيت ﷺ، يوجبون الرجوع إليه والاعتماد عليه وتقييم المسائل به، بل اعتبروه منبعًا ومصدرًا للتعاليم الإسلامية، حتّى جعل العلماء المسلمون قانونًا معروفًا في هذا المجال الذي يوضّح قيمة العقل ومكانته الخاصّة التي حاز عليها في الإسلام، وهو: أنّ كلّ ما حكم به العقل حكم به الشرع. [الخوئي الهاشمي، ١٣٢٤ هـ، ٥ / ١١٧٦]

وعلى هذا نشاهد تناسقًا وتطابقًا وتكاتفًا بين الفطرة والعقل والدين في تحديد مسير الإنسان وإرشاده إلى بناء صرح الثقافة الصحيحة التي يجب عليه السلوك والحركة في إطارها، فالأصول الاعتقادية والأخلاقية وكثير من أصول الأحكام الدينية مكنونة ومودعة في فطرة الإنسان، فالعقل عندما يراجعها ويفكّر فيها يجدها مقبولةً ومعتبرةً عنده، ولا يجوّز على نفسه التجاوز عنها والذهاب إلى غيرها، فعندما تأتي الشريعة نراها تؤيد هذه الأمور وتتطابق مع الفطرة والمدركات العقلية ولا تخالفها أبدًا، مثل العدل والصدق والأمانة واحترام الكبير والترحّم بالضعيف أو الصغير، بل نجدها بعد التأييد والتأكيد تأتي بالتفريع والتفصيل فيما كان مجملًا عند الفطرة ولم يدرك العقل دقائقه، وتضيف إليهما ما لا يمكن لهما إدراكه والوصول إليه.

وللإمام الكاظم ﷺ مع تلميذه هشام كلام طويل حول أهمّية العقل ومكانته ووظائفه، وكونه أساسًا ومصدرًا من مصادر القوانين والعلم والأخلاق الإسلامي حيث جعله الشارع المقدّس حجّةً على الناس كما جعل الوحي الإلهي حجّةً عليهم، ومن أهمّ فقرات هذه الرواية قوله ﷺ: «يَا هِشَامُ، إِنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَّةً بَاطِنَةً، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ ﷺ، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ»

[الكليني، ٣٢٩ هـ، الكافي، ١ / ١٦].

والسيّد فضل الله في تفسيره للآية الثامنة والعشرين بعد المئة من سورة طه، اعتبر العقل أساسًا للمعرفة والإيمان، حيث قال: «كان التوجيه القرآني يؤكّد على قيمة العقل كأساس للمعرفة وللإيمان، وعلى دور أصحاب العقول، كنموذج للفئة الواعية المؤمنة التي تحمل مسؤولية الحياة من موقع الحسابات العقلية الدقيقة» [فضل الله، ١٥ / ١٧٤].

فالعقل أصل من أصول تأسيس الثقافة الإسلامية، ويجب علينا جميعًا الرجوع إلى هذا الأساس حتّى نستطيع بناء أنفسنا والخروج من أيدي الاستعمار العالمي وأذنابه في البلدان الإسلامية والمجتمعات الإنسانية، التي يجب عليها تحرير نفسها من تلك القوى الطاغية الظالمة، وإخراج كلّ من يمتصّ ثرواتنا وجميع ممتلكاتنا فى البر والبحر بكلّ وقاحة، ومجتمعاتنا تزداد فقرًا وضيقًا وأمراضًا المستعصية، وأرقام الجهل والفساد في كلّ يوم ولحظة تتزايد في جميع الأصعدة والساحات الاجتماعية.

٣-٢ الدين الإلهي

إنّ الدين من الأمور الفطرية الأصيلة، ولا يوجد قوم أو أمة طوال حياة البشر على هذه المعمورة إلا وكان لهم دين أو منهج حياة، سواءٌ كان إلهيًّا أو غيره، فكلّ دين منذ تاريخ البشر لا بدّ له من أصول أو مصادر يستقي منها اعتقاداته ونظام حياته الفردي والاجتماعي من سلوكيات وأساليب ومناهج تدور الحياة عليها، ومن هنا تتكوّن الثقافة مع جميع مكوّناتها وعناصرها الأساسية والفرعية، ثمّ من هذه الثقافة تترقّى الأمّة إلى استنتاج ما يسمّى بالحضارة والتقدّم. فالثقافة وغيرها من الأمور المتعلّقة بالفرد والمجتمع في نظر الدين الإسلامي مبنيّة على أساس الدين المتطابق مع الفطرة والعقل، ولا يمكن خروجها من إطاره.

الدين في اللغة جنس شامل لجميع أنواع الانقياد والخضوع ومعانيه، مثل الطاعة. ويقال: دان يدان دينًا، إذا صار مطيعًا ومنقادًا [ابن فارس، مصدر سابق (أ)، ٢ / ٣١٩]. كما يقال بالعادة والشأن دينًا، أو الذلّ والاستعباد. مثل دَانَه دِينًا بمعنى أذلّه واستعبده [الجوهري، مصدر سابق، ٥ / ٢١١٨]، والدين بمعنى الجزاء أيضًا راجع إلى ذلك الأصل، ويجمع الدين بالأديان. [راجع: الفراهيدي، مصدر سابق، ٨ / ٧٣]

وفي الاصطلاح فقد عرّفه الأستاذ كاشفي بقوله: «عبارة عن مجموعة الحقائق المترابطة من النظام الاعتقادي والقيم الأخلاقية والأحكام الشرعية التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام من الله تعالى في قالب الوحي؛ لهداية الإنسان وتعاليه في الساحة الفردية والإجتماعية» [كاشفي، ١٣٨٩ ش، ٤٥].

ويقول الشيخ الكرمي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾: «الدين هو الخضوع للمقرّرات الربّانيّة في السير الحيويّ، تنصّ هذه الآية على أنّ الدين غير معقول أن يكون فيه أكثر من واحد؛

وذلك لأنّ الواقع واحد لا اثنان، والباري تعالى لا يتعبّد الناس بغير الواقع، وإنّ هذا الدين الواحد هو الإسلام لله سبحانه في كلّ وقت، ومقرّرات الإسلام أيضًا متّحدة في جذورها، وإن اختلفت المصالح في تغيير وتبديل فروعها على تسلسل الأجيال وتعدّد الأنبياء والمرسلين حتّى استقرّت بكاملها في نبوّة خاتم الأنبياء» [الكرمي الحويزي، ١٤٢٣ هـ، ٢ / ٢١].

فوحدة الأصل الوحياني لجميع الأديان السماوية مع وجود الإختلافات في تفاصيل الأحكام والقوانين بينها هو السرّ والأساس في وجوب الاعتقاد بنبوّة جميع الأنبياء السابقين عليهم السلام وما جاءوا به من الكتب والشرائع، كما أنّه من الأدلّة الواضحة على حركة الأنبياء في خطٍّ واحدٍ قدمًا بقدمٍ لإعمار الأرض ولإيصال البشر إلى الكمال اللائق به عبر بناء الثقافة الإلهية المتراقية.

المراد بالدين في هذا البحث هو الوحي الذي منه تنزل النصوص الإلهية الشاملة للكتاب والسنّة في معناه الواسع، ولا نقصد به البحث في المسائل المرتبطة الدين كعقيدة وشريعة وسلوكيّات أخلاقية، بل إنّ الأصل الذي منه تصدر العقيدة والشريعة والقيم الخلقية هو مورد البحث، وهو ما نقصد بالأساس في البناء الثقافي، بل هو الأهمّ من الأسس الأخرى وإن كانت متطابقة ومتناسقة في الهدف، إذ إنّه الأساس الوحيد الذي لا يؤثّر عليه شيء من الخيال والوهم وهوى النفس والعواطف وغيرها من الأمور المؤثّرة على فكر الإنسان وسلوكه خطأً أو عمدًا، فالوحي هو الأساس الثالث الذي تبنى الثقافة السليمة عليه في نظر القرآن.

قال تعالى: ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْري ما يُفْعَلُ بي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ [سورة الأحقاف: ٩]. أي أنّ أساس جميع فكري وحركتي العملية هو ما يوحى إليّ لا غيره.

فالنصوص الإسلامية من الكتاب والسنّة لها خصائص ومميّزات تفرّقها عن غيرها من النصوص الأخرى، وحريٌّ بها أن تكون كذلك نظرًا إلى حقيقة من نزلت منه، وهو الباري عزّ وجلّ الخالق العليم، وكذا أهدافها الراقية ومقاصدها السامية التي هي السعادة والكمالة في الحياة الأبدية للإنسان؛ فلذلك نرى القرآن نفسه يبيّن هذه الخصائص ويوضّحها للعقلاء الذين يتفكّرون ويتدبّرون في جميع الأمور، ودائمًا يتوجّهون إلى ما في أعماق فطرتهم، ويلبّون دعوتها وهدايتها الإلهية المقرونة بوجودهم، ومن هذه الخصائص:

الخاصّيّة الأولى: وحيانية النصوص. إنّ هذه الخاصّيّة هي أمّ الخصائص والمميّزات الأخرى للنصوص القرآنية، فهو نازل من الباري عزّ وجلّ عن طريق أمين وحيه إلى رسوله الصادق الأمين، ليقرأه على الأمّة جمعاء، فتهتدي به إلى الطريق القويم المستقيم حتّى تصل إلى مقصدها الحقيقي. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۞ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

الخاصّيّة الثانية: النزول التدريجي. إنّ نزول القرآن الكريم يختلف عن نزول بقيّة الكتب السابقة بهذه الخاصّيّة ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦]. فالرسالة الموجودة في الآية الكريمة هي إثبات خاصّية النزول التدريجي للقرآن الكريم من بين سائر الكتب السماوية الأخرى.

الخاصّيّة الثالثة: خاتمية الرسالة. إنّ القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة من الله ﷻ إلى العالم البشري جمعاء، وليس هناك رسالة أخرى بعدها. ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠] أي أنّ رسول الإسلام محمد ﷺ هو آخر النبيين الذي ختمت النبوّة به، فشريعته باقية إلى يوم الدين [انظر: الطبرسي، ٤٦٨ أو ٤٦٩ أو ٥٤٨ هـ ٨ / ٥٦٧]؛ لأنّه لا نبي بعده إلى يوم القيامة. [انظر: الطوسي، ٤٦٠ هـ ٨ / ٣٤]

الخاصّيّة الرابعة: خلود الصيانة. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصّلت: ٤١ و٤٢]. والمدلول على أيّ حال أنّه لا تناقض في بياناته، ولا كذب في إخباره، ولا بطلان يتطرّق إلى معارفه وحكمه وشرائعه، ولا يعارض ولا يغيّر بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آية من وجه إلى وجه، فالآية تجري مجرى قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾. [الطباطبائي، مصدر سابق، ١٧، ٣٩٨]

الخاصّيّة الخامسة: ماهية الهداية. عندما نراجع كلّ الآيات الشريفة في المضمون والمفهوم، ظاهرها وباطنها نشاهد هذه الخاصّيّة بشكل واضح وصريح، فكلّها تتّجه نحو هدف واحد من دون أيّ تناقض وتهافت: ﴿ذَلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقينَ﴾ [سورة البقرة: ٢]. فكلّ ما جاء في هذا الكتاب يكون المقصود منه هو تحقّق الهداية للبشرية لتصل إلى السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة.

الخاصّيّة السادسة: الشمولية للحاجات البشرية. إنّ هذا الكتاب يوجّه بشكل كامل إلى كلّ المسائل الروحية والعقلية والسلوكية للفرد والمجتمع، فجاء بأصول يعالج كلّ المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية وغير ذلك ممّا تتعلّق الحياة البشرية بها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْيانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمينَ﴾ [سورة النحل: ٨٩].

فالقرآن الكريم ليس كتابًا خاصًّا لزمن دون آخر، أو مكان دون مكان، أو قوم دون قوم، بل هو كتاب لكلّ البشرية؛ فقد اشتمل على جميع أصول الهداية الإلهية من العقيدة والآداب الأخلاقية، كما جمع أصول الشريعة بكلّ ما فيها من شؤون حياة الأفراد والمجتمع، ويخاطب كلّ صنف من الناس باتّجاهٍ عقليٍّ مناسبٍ، وله أساليب مختلفة لمخاطبيه من العقلاء والعرفاء والمتخصّصين في كلّ الفنون وغيرهم من

العوامّ، فهو كتاب لكلّ الأجناس، ويخاطب الجميع على قدر عقولهم. [انظر: الحفناوي، ١٠١ و١٠٢]

وفيما يتعلّق بدور الوحي في البناء الثقافي فهناك آيات تشير إلى بناء الثقافة بنحو كلّي، وتشمل جميع المساحات في حياة الإنسان كقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٤]. فالموضوع الأساسي في الآية هو الحياة السالمة والمتطوّرة المرضية عند الله ﷻ بكلّ ما لها من معنًى، وتُبيّن لنا ما تحمله من الرسالة الجامعة في البناء الثقافي للفرد والمجتمع. فمن مصاديق الحياة دعوة القرآن الكريم إلى العيش على النحو الصحيح، في الحياة المعنوية والبناء الروحي، في الحياة المادّية وبناء الجسم السالم، في الحياة الاقتصادية وكسب الحلال، في الحياة السياسية والعمل السياسي النظيف، في الحياة الأخلاقية وحفظ القيم الإنسانية، وفي الحياة الاجتماعية والتعاون الاجتماعي وما شابه ذلك.

يقول الشيخ مكارم الشيرازي: «وهذه أقصر وأجمع عبارةٍ عن الإسلام ورسالته الخالدة، إذا سأل أحد عن أهداف الإسلام، وما يمكن أن يقدّمه، فنقول جملةً قصيرةً: إنّ هدفه هو الحياة على جميع الأصعدة، هذا ما يقدّمه لنا الإسلام» [مكارم الشيرازي (ب)، ٥ / ٣٩٥].

وفي البحث عن مصاديق أخرى بنحو جزئي يمكن الإشارة إلى بناء ثقافة التوحيد ووحدة الدين، وبناء ثقافة العلم وبثّ المعرفة، وبناء ثقافة التفكّر والتعقّل، وبناء ثقافة وحدة المجتمع والدفاع عن المصالح الاجتماعية، وبناء ثقافة مناهضة الظلم ونشر العدالة، وبناء ثقافة العمل وكسب الحلال، وغير ذلك من المصاديق الأخرى.

٤-٢ وحدة السيرة العقلائية

من الأمور المهمّة التي تبتني عليها الثقافة ولها دور أساسي في تشخيص المنافع والمضارّ المادّية والمعنوية في حياة الإنسان هي مرتكزات عقلائية توافقت المجتمعات الإنسانية عليها، وتعدّ أمرًا مقبولًا ومتعارفًا فيما بينها، فقد وصلت إلى حدّ أن الشخص الذي خالفها فهو معاتب وملام، فهذه المرتكزات المتطابقة والمتوافق عليها بين المجتمعات البشرية هي التي تسمّى بالسيرة العقلائية.

فالسيرة لغةً من سار يسير سيرًا، وهو في الأصل بمعنى المضي والذهاب ليلًا أو نهارًا، ومن هنا سمّي الطريق بالسيرة [انظر: ابن فارس، مصدر سابق، ٢ / ١٢٠]، كما سمّيت بذلك الحالة السلوكية التي عليها الإنسان سواءٌ حسنةً كانت أو سيّئةً. [انظر: الراغب الإصفهاني، مصدر سابق، ٤٣٣]

فقد عرفنا أنّ الإسلام جاء بمصطلحاته الخاصّة، كما وضع العلماء المتخصّصون مصطلحاتٍ أخرى حسب تخصّصاتهم، فأوجدوا مصطلح "السيرة" الذي ترقّى من المفهوم اللغوي إلى الاصطلاحي حيث صار

معنى السيرة مصطلحًا إسلاميًّا كثُر استعماله بمعنى طريقة المسلمين في تعاملهم مع غيرهم من الكفّار والباغين وأهل الذمّة ونحوهم ممّن هو خارج عن زمرتهم، وتسمية كتب "المغازي" بهذا الاسم راجع إلى هذا التطوّر الاصطلاحي أيضًا [التهانوي، مصدر سابق، ١ / ٩٩٨]، وقد اختُصّ هذا المفهوم مرّةً أخرى بالسلوك النبوي ومعاملته في المؤلّفات الخاصّة بتاريخه ﷺ، مثل كتاب السيرة لابن هشام وغيره، كما أطلق مرّةً أخرى على سيرة غيره أيضًا. وعليه وضع العلماء الأصوليون مصطلح السيرة في كتبهم الأصولية بمعنى تعوّد الناس وتبانيهم على فعل شيءٍ معيّنٍ أو تركه، بحيث يكون عادةً ومعروفًا في سلوكياتهم. فإن اختصّت هذه العادة بالمسلمين كأتباع الشريعة الإسلامية تسمّى بسيرة المتشرّعة، وإن كانت عامّةً لهم ولغيرهم من عقلاء العالم تسمّى بسيرة العقلاء أو السيرة العقلائية [انظر: المظفر، ١٣٨٤ هـ ٢ / ١٧١] وهي محلّ بحثنا.

فقد عرفها الشهيد الصدر بأنّها: ميل عامّ عند العقلاء – المتديّنين وغيرهم – نحو سلوكٍ معيّنٍ دون أن يكون للشرع دورٌ إيجابيٌّ في تكوين هذا الميل [الصدر، ١٤٠٠ هـ، ٢١٠]. أي إذا تدخّلت الشريعة في إيجاد السيرة وتكوينها تسمّى بسيرة المتشرّعة، وإن لم يكن لها دور كذلك تسمّى بالسيرة العقلائية.

فقد وضّح السيّد كاظم الحائري هذا التعريف بقوله: «اتّفاق العقلاء في أعمالهم ومسالكهم على شيء إيمانًا منهم – ولو ارتكازًا – بنكتةٍ عامّةٍ موجودةٍ في قريحة تمام العقلاء، فلو شذّ أحدهم عن هذه الطريقة كان من قبل العقلاء موردًا للملامة أو الاستغراب والسؤال ونحو ذلك بحسب اختلاف الموارد. [الحائري: ٢ / ٩٧]

ومن الخصائص التي تتميّز بها السيرة العقلائية عن غيرها من عادات وتقاليد مخصوصة بقوم أو قبلة أو أتباع دين غير إلهي ما يلي:

منها: كون سيرة العقلاء أمرًا مرتكزًا كلّيًّا بين جميع العقلاء من دون دخالة الدين والتعاليم الدينية فيها، فالسلوك الخارجي بمنزلة مصداق من مصاديقها.

ومنها: عدم دخالة الزمان والمكان فيها، يعني أنّ السيرة العقلائية خارجةٌ عن هذين القيدين بحيث نشاهد السلوك المطابق لها بين جميع العقلاء، وفي كل المجتمعات البشرية من دون فرق بينها.

ومنها: الاتّفاق بين العقلاء في هذه السيرة بصورة لو خالف واحد منهم السلوك المتّفق عليه يذمّ ويعاتب، كما أنّه بنفسه لا يستطيع العيش والحياة براحة في المجتمعات العقلائية من دون الموافقة على السلوك الموافق لها بين الناس.

فهذا الميل ووحدته والتطابق الفكري نحو سلوك معيّنٍ بين جميع عقلاء البشر مع اختلافهم الديني

والثقافي والجغرافي والتاريخي ونحوه، هو ما نعتبره أساسًا من أسس البناء الثقافي، وهي مؤيّدة من قِبَل العقل والنصوص الدينية، ولا يتصوّر اتّفاق العقلاء بما هم عقلاء على ما يخالف العقل والشرع اللذين يؤيد أحدهما الآخر، وإن أمكن الخطأ والانحراف في بعض التطبيقات والمصاديق، فهذا لا يعود إلى أصل السيرة، بل يعتبر خطأً في العمل من الإنسان لا من نفسها.

فالمراد بالأساس من السيرة العقلائية هو وحدتها وشموليتها المتّفق عليها بين الجميع، ونعتبرها أساسًا من أسس البناء الثقافي نظرًا إلى تلك الشمولية والمنشإ للحياة الاجتماعية المتكوّنة فيها الثقافة، ثمّ انتشارها في المجتمعات الأخرى.

وبمراجعة النصوص القرآنية نكتشف تطابقه وتأييده لهذا الأساس عن طريق بيان بعض المصاديق التي توضّح لنا اعتبارية أصل المسألة، وإن كان بعض السلوكيات والأعمال الخارجية قد تخالف التعاليم الإسلامية، ولكنّ المراد هنا هو أصل المسألة لا تطابق جميع المصاديق بالأصل، ومن المصاديق الواردة في الذكر الحكيم ما يلي:

الأوّل: سيرة رجوع الجاهل إلى العالم. إنّ الرجوع إلى أهل الخبرة في حلّ المشاكل والنزاعات، أو تقدير قيم الأشياء ومقاديرها، أو الكشف عن حقيقة الأمور والأشياء للوصول إلى الكمال، من السيرة العقلائية التي يؤيّدها القرآن الكريم في نصوصه الحكيمة. قال تعالى في سورة النحل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٣].

يقول السيّد الشيرازي: «يستفاد من الآية قاعدة كلّيّة عقلائية مقرّرة في الشريعة، هي سؤال أهل العلم عمّا لا يعلمه الإنسان» [الحسيني الشيرازي، ١٤٢٢ هـ ٣ / ٢٢٠]. ويقول العلّامة الطباطبائي: «فالآية إرشاد إلى أصل عام عقلائي، وهو وجوب رجوع الجاهل إلى أهل الخبرة» [الطباطبائي، مصدر سابق، ج ١٢، ص ٢٥٩].

الثاني: سيرة ذمّ معاقبة الجاهل القاصر، ومن الأمور الرائجة والمعروفة بين العقلاء أيضًا أن الإنسان الذي وقع في الخطإ والذنب بدون علم سابق بالموضوع لا يعاقب ولا يلام باعتبار أنّه غير عالم، ولو عاقبه الغير مع ذلك لكان معاتبًا على معاقبة المعذور الذي يحكم المرتكز العقلائي بإصدار العفو له. ويؤيّد ما تقدّم قول الشيخ محمد جواد مغنية: «وقد أجمع الفقهاء كلمةً واحدةً على هذا المبدإ، وأقرّه الشرع في العديد من الآيات والروايات، فمن الآيات ما نحن بصدده: ﴿مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾. والآية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ومن الروايات قول الرسول الأعظم ﷺ: «رفع عن أمّتي ما لا يعلمون» [مغنية، ١٤٠٠ هـ، ١ / ٢٤٨]. وهذا بحدّ ذاته دليل على عدم العقاب في الأمور التي لم تقم الحجّة عليها، وقاعدة

"أصل البراءة" لا تعني شيئًا غير هذا، أي لا عقاب بدون حجّةٍ من العقل أو النقل. [مكارم الشيرازي، مصدر سابق: ٨ / ٤٢٧]

الثالث: سيرة قبول خبر الثقة، فمن النصوص القرآنية المعروفة التي يستدلّ بها ويعتمد عليها في إثبات الحجية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصيبُوا قَوْمًا بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمينَ﴾ [سورة الحجرات: ٦].

ويقول السيّد العلامة: «وقد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر، وهو من الأصول العقلائية التي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعية الإنسانية، وأمر بالتبيّن في خبر الفاسق، وهو في معنى النهي عن العمل بخبره، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجّيّته، وهذا أيضًا كالإمضاء لما بنى عليه العقلاء من عدم حجّيّة الخبر الذي لا يوثق بمن يخبر به، وعدم ترتيب الأثر على خبره» [الطباطبائي، مصدر سابق، ١٨ / ٣١٢].

الرابع: سيرة الابتعاد عن أكثر الضررين. هناك نص قرآني يثبت هذه القاعدة الكلّيّة إذا نظرنا إليها نظرةً متفحّصةً عميقةً ودقيقةً، كقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فيهِما إِثْمٌ كَبيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [سورة البقرة: ٢١٩]. فالآية الكريمة في الحقيقة تثبت هذه القاعدة العقلية والعقلائية التي يطبّقونها في حياتهم الإجتماعية، فدائمًا نراهم يقيسون الأمور من ناحية المنافع والمضارّ، فكلّ ما كان نفعه لهم أكثر من ضرره يأخذون به ويرفضون ما هو أقلّ نفعًا، فالقرآن الكريم في مسألة الخمر والميسر انتهج لهم هذا المنهج، وإذا قاسوا ذاك النفع الذي لا يمثل شيئًا قياسًا بالضرر، فلا محالة إنّهم يبتعدون عنه، فجرى لهم في المسألة على هذه القاعدة المسلّمة عندهم. [راجع: فضل الله، مصدر سابق، ٤ / ٢٢٦]

وعلى كلّ حال فالسيرة العقلائية أو بناء العقلاء هو تتمّة الأسس الأربعة التي نعتقد بكونها أُسسًا للبناء الثقافي بالنظرة القرآنية، فهي الأركان التي تبتنى عليها ولا يمكن للثقافة المنسوبة علاقتها بالإسلام فتتخلّى أو تنحرف عنها.

النتيجة

في هذا البحث المقتضب توصّلنا إلى التعريف الجديد للثقافة وبنائها وإلى أنّ الثقافة الإلهية التي جاء بها الكتاب الحكيم ويريد بنائها في المجتمع البشري لها أسس وبنًى يجب أن تتأصل عليها؛ وهي عبارة عن الفطرة الإنسانية والعقل الموهوب والدين الإلهي المقدّس، وكذا سيرة العقلاء التي تتمحور الحياة البشرية عليها منذ وجد الإنسان في هذه المعمورة إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويجب علينا تقصّي بناء الثقافة القرآنية من خلال تأصيل هذه الأسس الرصينة في مجتمعاتنا الإسلامية.

المصادر

١. ابن فارس، أحمد بن فارس (٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق هارون عبد السلام محمد، مكتب الإعلام الإسلامي، قم المقدسة - إيران، الطبعة الأولى.
٢. ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي (٧١١ هـ)، لسان العرب، تحقيق ميردامادي وجمال الدين، دار الفكر – دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة.
٣. البلاغي النجفي، محمدجواد، التفسير الكاشف، تحقيق بنياد بعثت، بنياد بعثت، قم المشرفة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
٤. بروس كوئن (١٩٣٨ م)، مبانى جامعه شناسى، ترجمه و اقتباس غلامعلى توسلى و رضا فاضل، چاپخانۀ گل ها، قم – ايران، چاپ ٢٦، ١٣٩٣ ش.
٥. التهانوي، محمد علي بن علي (١١٤٨ هـ)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق دحروج علي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، السنة ١٤٣٦ هـ.
٦. جوادى آملى، عبدالله (معاصر)، دين شناسى در قرآن (ب)، تقرير محمدرضا مصطفى پور، چاپ پنجم، قم – ايران، ١٣٨٧ ش.
٧. جوادى آملى، عبدالله (معاصر)، فطرت در دينى قرآن (أ)، تقرير محمدرضا مصطفى پور، قم – ايران، چاپ سوم، ١٣٨٤ ش.
٨. الجوهري، إسماعيل بن حماد (٣٩٣ هـ)، الصحاح، تحقيق عطار وأحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى.
٩. جمع من الباحثين، شرح المصطلحات الكلامية، العتبة الرضوية، مشهد – إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
١٠. جمع من الدكاترة، (محمد عبد السلام محمد، على أحمد السالوس، عمر سليمان الأشقر، محمد نبيل غنايم، محمد شلبي شتيوي، رجب سعيد شهوان)، دراسات فى الثقافة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة السابعة، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.
١١. جمع من المؤلفين، المعجم الوسيط، نشر موسسة الصادق، مطبعة باقري، قم - إيران، الطبعة الخامسة، ١٤٢٦ هـ.
١٢. الحائري، السيد كاظم (معاصر)، تقرير مباحث الأصول للإمام الشهيد محمدباقر الصدر، دار البشير، قم المشرفة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ.
١٣. الحجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، دار الجيل الجديد، بيروت - لبنان، الطبعة العاشرة،

١٤١٣ هـ.
١٤. الحدري، خليل بن عبد الله بن إبراهيم، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم وتطبيقاتها التربوية، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م.
١٥. الحسيني الشيرازي، السيد محمد (معاصر)، تقريب القرآن إلى الأذهان، طبعة دار العلوم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، السنة ١٤٢٤ هـ.
١٦. الحكيم، محمدباقر (١٤٢٨ هـ)، علوم القرآن، نشر مجمع الفكر الإسلامي، قم المشرفة - إيران، الطبعة الثالثة، السنة ١٤١٧ هـ.
١٧. الحفناوي، محمد إبراهيم (معاصر)، دراسات أصولية في القرآن الكريم، طبعة ونشر الإشعاع الفنية، القاهرة - مصر، ١٤٢٢ هـ.
١٨. الخرازي، السيد محسن (معاصر)، بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المشرفة - إيران، الطبعة الرابعة، السنة ١٤١٧ هـ.
١٩. الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (٤٢٥ هـ)، مفردات ألفاظ القرآن (أ)، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت – لبنان.
٢٠. الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (٤٢٥ هـ)، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ب)، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.
٢١. رابطة العالم الإسلامي، مقالة: الثقافة بين الثابت والمتغير.
٢٢. الزحيلي، وهبة الله بن مصطفى (٢٠١٥ م)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ.
٢٣. الزرقاني، محمد عبد العظيم (١٩٤٨ م)، مناهل العرفان في علوم القرآن، نشر دار إحياء التراث العربي.
٢٤. السبحاني، جعفر، الإلهيات على ضوء الكتاب السنة والعقل (ج)، مجموعة آثار آية الله العظمى الشيخ جعفر السبحاني، مركز التحقيقات الكومبيوتري للعلوم الإسلامية.
٢٥. السبحاني، مجموعة آثار آية الله العظمى الشيخ جعفر، نظرية المعرفة (أ)، مركز التحقيقات الكومبيوتري للعلوم الإسلامية.
٢٦. السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن (ب)، مجموعة آثار آية الله العظمى الشيخ جعفر، مركز التحقيقات الكومبيوتري للعلوم الإسلامية.
٢٧. شفيعى، سيدمحمد، پژوهشى پيرامون فطرت مذهبى در انسان، دفتر انتشارات اسلامى، قم - ايران،